غداة الإحتفال بربع القرن الأول من حياتها

الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية

25 سنة في بناء ثقافة الطفولة

حصاد المسيرة الطويلة من أجل العدل التربوي لأطفال الكويت والعرب أجمعين

-1-

عندما بدأنا مسيرتنا الطويلة في استكشاف مجاهل الطفولة في العالم العربي لم نكن لنعلم أن تلك المسيرة ستكون عملية غوص في عُقدٍ مجتمعية تحاصر حق الأطفال في نشأة نفسية واجتماعية سوية تفتحّ ما أودعه اللّه فيهم من رشد الفطرة الهادية إلى نماء عقلي غير معوّق وصحة نفسية تحميهم من خواء الروح وإزدواجية المقاييس.

كنا كلما أوغلنا في تلك المجاهل عاماً بعد عام يتوثق عندنا دليل قائم على أن أخطر ما يتهدد النشأة السوية لهؤلاء الأطفال كونُهم يحيون في مجتمعات قلقة لم تكتشف بعدُ موقعها من حركة التاريخ الحديث ... قيمه وتطلعاته ورؤاه، مجتمعاتٍ تعاني هي نفسها من إعضالات الانسلاخ من وضع تاريخي موروث إلى وضع تاريخي مكتسب وجديد؛ إعضالات تدفعها إليها وتغمسها فيها موجة زاحفة من التبدل المادي والاخلاقي تصاحبها تحولات نفسية ومسلكية في أنماط العلاقات الاجتماعية والسياسية تسبغ على الروابط بين الكبار والصغار حالة من التوتر يقف الأطفال منها في "نقطة الشد Stress Point " محتملة الانكسار وينفرز منها نوعان من القلق يعزز أحدهما الأخر، قلق للكبار ناجم عن تعلقهم بالرؤى التي ثبتوا فيها بحكم العمر ونوع

الخبرات المتراكمة عندهم، وقلق للصغار مرجعه كونهم غير مكتملي الوجود وغير راشدي الوعي لذواتهم وللأشياء من حولهم وأن كثيراً من نشأتهم ـ سلامةً أو سوءاً ـ يعتمد بالضرورة على نوع الدور الذي يلعبه الكبار في تشكيل هذه النشأة ورسم مقاصدها. وما دام فاقد الشيء لا يعطيه، فإن معاناة الطفولة في هذه المجتمعات المعقدة تكتسب بدورها درجة عالية من التعقيد. بعبارة أخرى أن هذه المجتمعات الجاهلة لذاتها العاجزة عن اختيار موضع لها من حركة التاريخ المعاصر تموّه خوفها من التغيير بزيادة التسلط على ناشئتها زعماً منها بأن السلطوية التربوية هي ضمانة لحفظ ذاتها واستمرارية قيمها الموروثة في خضم التحولات الحادثة من حولها. في عملية التمويه هذه تروح السلطوية التربوية تؤكد قيم الخضوع والطاعة والعلاقات الفوقية بين الراشدين والأطفال بشكل أو بآخر فتغدو قيم الحرية والتعاون صيغاً لفظية فاقدة المضمون والفعل على الصعيدين الجماعي والفردي ويظل المجتمع يفرز بشراً يخاف من الحياة ويرتاب في السلطة فيخنع لها لاجتناب أذاها ... بهذا تتولد (ثقافة القسر) التي ينشأ فيها الأطفال ـ (ثقافة القسر) لها مآل واحد هو الفصام في رؤية المجتمع لذاته، وجهده في فرض هذا الفصام على ناشئته غافلاً أو متغافلاً عن جوهر الفصام أو علّته، وهي التمزق بين (مثال) يقدره المجتمع ويتعلق به ولكن يجبن عن الارتفاع إليه أو يعجز لأن الارتفاع إليه باهض الكلفة من التضحية وإنكار الذات، وبين (واقع) مثقل بالمغريات والغوايات ولكنه مفلس من امكانيات التسامي الروحي والأخلاقي

الـذي يتغنـى أفـراد المجتمـع بـالطموح إليـه تزكيـة لأنفسـهم، تزكيـةً يعرفـون جيـداً أنهـم غـير أكفـاء لهـا. لقـد أمـتحن الاسـلام المجتمعـات العربيـة بتطلعاتـه الانسـانية العاليـة العريضـة التـي رفـدتها الديمقراطيـة المعاصـرة بـروح التسـامح وتقبل الرأي الأخر فكان (المثال) الهادي لهم لو لا أن شـدّتهم رؤاهـم التاريخيـة عن أنفسهم فكان (الواقع) الذي ناقض (المثال) ونازعـه علـى ولائهـم وقيـادتهم وسقط (العقل الجمعي) أسير صراع غير محسوم بين (المثال) و(الواقع).

لقـد تحـول الفصـام في الـذات المجتمعيـة العربيـة إلى حـرب خفيـة علـى إمكانـات النشـأة السـوية ــ اجتماعيـاً ونفسـياً ــ للأطفـال ونمـائهم العقلـي والعـاطفي وذلـك بفعـل (الهيمنـة البطركيـة) علـى حيـاة الأطفـال الـتي يزيـد في التضـييق عليهـا الإرتـداد العربـي إلى الماضـي والعـودة اللاشـعورية إلى سـجن التـاريخ الكـبير حيـث تتراجـع الـنظم التعليميـة العربيـةعن أفاقهـا العلميـة المعاصرة وعن تطلعاتها المستقبلية فتركـز أعينهـا علـى الماضـي الـذي إن صلح للتعامـل معـه خزانـةً لحكمـة الماضـين فإنـه لا يقـدم حلـولاً لأزمـات المعاصـرين ومشاكلهم. لهذا لم يكن عجباً أن تتوالى الأزمات بإيقـاع متسـارع وتلاوين لم تكن لتختلف إلا بدرجة قتامتها والا بمقـدار تعويقهـا للنشـأة السـوية للأطفـال. تراجعت التوجهات المدنية أمام زحف القبلية الجديدة، ووقع التغابن في إقتسـام الخير العام، وشرعت الدولـة تتخلـى تـدريجياً وبطـرق مختلفـة عـن مسـؤولياتها الاجتماعيـة والتربويـة منهـا بشـكل خـاص. وتخلـت التربيـة عـن اشـراك جميـع

الأطفال في نعم المعرفة الحديثة، وتعززت تقاليد (اليد الميتة)[*] بسبب تعاظم الفجوة بين بعض شرائح المجتمع، وقصر التشريع عن تحرير الارادة العامة، وصمت القانون عن (العقد الاجتماعي) الكافل لتوازن الحقوق والواحبات بين أفراد المجتمع، وغيّبت دراسة حقوق الإنسان عن المناهج الدراسية على حين تمت مأسسة سايكولوجية الخوف والاتباعية الفكرية وتعززت تراتيب الحجر على القوى الاجتماعية الجديدة البازغة في المجتمعات العربية... القوى النسائية والشبابية. لقد كان من بعض أثار هذا السيل المتلاطم من الارتدادات إن صار الحديث عن (تحولات الضعف) في المجتمعات العربية هو القرين المحزن لـ (تحولات القوة) في المجتمعات الديمقراطية واصطدمت التربية العربية بمأزق جديد.

-2-

كان إنشغالنا بأزمات هذا الواقع صارفاً لنا ... أمةً وشعوباً .. أفراداً وجماعاتٍ عن تعميق فهمنا للطفولة وعن التوغل في دراسة متطلباتها النمائية

(*) المراد بتقاليد (اليد الميتة) هو التقاليد التربوية أو الممارسات التعليمية التي لا تربي الأطفال على استعمال أيديهم في التعامل مع الموجودات المادية في البيئة إبتكاراً أو تجديداً أو تصنيعاً وإنما تكتفي بالتعليم النظري الذي يحشو الذهن بالمعارف والمعلومات التي لا تتحول إلى مهارات يدوية وحبٍ للعمل وقدرةٍ عليه عند المتعلمين.

فلم نطرح على أنفسنا الأسئلة واجبة الطرح .. **ما هو الطفل ؟ هل هو فرد ؟ أم هو شخص؟ وماذا يعني التفرّد؟ وماذا يعني التشخّص؟ وأيهما يصنع الآخر؟ وماذا يترتب تربوياً على التعامل مع الطفل كفرد أو كشخص؟**

أن الأطفال يولدون مفطورين على الحرية والعفوية في فهم الظواهر والعلاقات الانسانية فمن الذي يحّولهم إلى عنصريين أو متعصبيين أو طائفيين أو طبقيين؟ الكبار يتغنون دائماً بحق الصغار في التعبير عن أفكارهم ولكن حق التعبير عن الفكر يكون ذا معنى إذا كان عند الأطفال فكر يستطيعون التعبير عنه ولكن هذه مسألة غير مضمونة لأطفالنا لا دائماً ولا ـ غالباً. الأطفال غالباً ما يُزقون أفكار الكبار من حولهم فإذا إستدخلوها ظنوها أفكارهم الخاصة وبهذا يسقطون ضحايا باردة لعملية تزييف الوعي فيهم، فما قيمة الحديث عن حق الأطفال في التعبير عن أفكارهم؟

-3-

عندما شرعنا نحرك التقاليد والقيم الجامدة بطرح هذه الأسئلة الحرجة إنفتح أمامنا أفق المسؤولية التي كانت مهملة جهلاً بها أو تخوفاً من تبعات المبادرة إليها. وعندما فتحنا باب المناقشة في جدوى إعادة إنتاج الماضي وإغراق أطفالنا فيه تكشفت أمامنا تداعيات النكوص التي سبقت الإشارة إليها وكان في تلك التداعيات ما حملنا على التأمل في مصدرية هذا العقم

الحضاري ودور التربية في صنعه والترويج له ؟ وطفقت الأسئلة تتعاقب ... ألم تكن تربيتنا الماضوية مسؤولة عن إساءتنا فهم الحداثة. وعن إساءتنا التعامل مع العالم الذي نعيش فيه حتى أوشكنا أن ننعزل عنه وأن نعاديه ؟ ثم ما المخرج من هذا المأزق الذي وضعتنا تربيتنا فيه ؟ وما هو واجب هذه التربية الآن في حماية أطفالنا من الوقوع فرائس لهذا المأزق ذاته ؟

-4-

هذا المأزق المهدد لإمكانات النماء الطبيعي عند الأطفال في مرحلة التعليم قبل المدرسي هو في واقع الحال نفي عملي لتحقق (العدالة التربوية) لجمع الأطفال وحكم عليهم بالتمييز فيما بينهم عندما يكبرون ويسعون لاحتلال مراكزهم في نظام (توزيع القوة الاجتماعية) اقتصادية كانت أم سياسية.

إن حماية الأطفال من احتمالات الاصابة بهذا الظلم المبكر توجب على المؤسسة التربوية ومنظمات المجتمع المدني أن تبادر إلى الاستجابة العملية لأربعة تحديات:

أولاً: العمل بكل الوسائل التشريعية والاعلامية على خلق وعي وطني عام بأخطار التقصير بشروط التنشئة السليمة في الحقبة الممتدة بين ميلاد الطفل ودخوله المدرسة الابتدائية لأن هذه الحقبة مفعمة بالفرص المواتية للنماء السوى كما أنها عرضة للعثرات المدمرة للنماء البدني

والعاطفي والإدراكي عند الأطفال بحكم أن النماء الإنساني هو نتيجة للتفاعل الحاصل بين القدرات والمواهب الوراثية المختزنة في الطفل وبين أحوال البيئة الانسانية التي ينمو فيها الطفل.

ثانياً: إن الخطر الذي يهدد النشأة السوية والسليمة وقد يعّوق أو يعطل النماء السليم للطفل ينتج عن واحد أو أكثر من الأسباب التالية:

(1) الفقر واضطرابات الحياة الاقتصادية للعائلة وما يفرزه من اشكالات أو ارتباكات في حياة العائلة تمتد إلى الأطفال ونشأتهم.

(2) العيش في عائلة مفككة.

(3) أن تكون ثقافة الأم أقل من مستوى الثانوية العامة.

(4) تهاون الأبوين معاً في أخذ عملية التنشئة مأخذاً جاداً.

ثالثاً: إن القصور أو التقصير في توفير شروط التنشئة السليمة للأطفال ينتج عنه إنعدام التساوى أو التكافؤ في إمكانيات الاستعداد للإلتحاق بالمدرسة الإبتدائية الأمر الذي تنجم عنه فجوات أو فروقات في القدرة على التعلم بين الأطفال تدوم معهم طويلاً. إن الاستعداد للإلتحاق بالمدرسة الابتدائية لا يتطلب توفر القدرات الإدراكية والمهارات التعبيرية فقط، بل هو يتطلب درجة واضحة من النضج الاجتماعي عند الطفل توفره التنشئة الاجتماعية الواعية كما يتطلب قدراً من التمرس

بالتنظيم الذاتي للسلوك وقدراً من حذق كيفية مقاربة أو محاولة التعلم عند الطفل نفسه. لقد أثبتت البحوث التي أجريت في هذا الصدد أن (الأطفال المحرومين) يدخلون المدارس الابتدائية بمستويات إدراكية واطئة وإفتقارٍ إلى الكفايات الاجتماعية المهمة أهمية خاصة للنجاح المرجو في المدرسة، على حين أن أطفال الأوساط الاجتماعية الأحسن حظاً ـ اقتصادياً وثقافياً ـ يلتحقون بالمدارس الابتدائية وهم أفضل تأهلاً للتعلم وللنمو عقلياً وعاطفياً واجتماعياً.

رابعاً: هذا التباين بين أطفال المرحلة قبل المدرسية يتسبب في ظهور ما يعرف بـ(فجوات التعلّم) و(فجوات التحصيل) بين الأطفال المحرومين وبين أترابهم الأحسن حظاً.

إن هذه الفجوات تدوم طويلاً بل هي تتسع أكثر فأكثر كلما تقدم الأطفال في التعليم المدرسي وذلك بسبب أن الأطفال المحرومين لا يتقدمون في التعلم بنفس السرعة التي يتقدم بها أقرانهم من الأوساط الاجتماعية الأحسن حالاً. الأطفال المحرومون يواجهون احتمالات الرسوب المتكرر وإعادة السنوات الدراسية بل وحتى التسرب من التعليم أكثر من أقرانهم أبناء الأوساط الاجتماعية الأحسن حالاً. أكثر من هذا، فإن مستويات الإنجاز الأوطأ من التحصيل الأكاديمي أو النماء الاجتماعي والعاطفي للأطفال المحرومين تترابط مع

الاسـقاطات الأسـوأ علـى فرصـهم المسـتقبلية مثـل الفـرص الأقـل للاسـتخدام والاتكـال علـى المسـاعدات الاجتماعيـة الحكوميـة أو الإنحراف والجريمة.

-5-

مـن تجلـي هـذه الآفـاق الفسـيحة تولـدت مقومـات الرؤيـة في الواجـب الـذي ينبغي لـ **(الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية)** أن تحمله وأن تؤديه وكان جـوهره ومقصـده الأعلـى خلـق ثقافـة علميـة جديـدة في الكويـت وفي العـالم العربـي هـي **(ثقافـة الطفولـة)** ومـن ثـم وضـعها في بـؤرة الاهتمـام العـام علـى الصـعيدين الحكـومي والشـعبي، ثقافـة تتكـرس لصـنع تقليـد تربـوي عربـي جديـد يتمحـور حـول احـترام الطفولـة وتعميـق المعرفـة باحتياجاتهـا الماديـة والصـحية والنمائيـة، ثقافـة تخلـق وعيـاً وتفـرض إلتزامـاً بحقـوق ثابتـة ومُجمَـع عليهـا للأطفـال تصـون تفـتح كيانـاتهم البدنيـة والنفسـية وتحـرر قـدراتهم المختزنة للإبداع. من هذا المنطلق ولهذه الغاية أخذت الجمعية على نفسها أمانـة السعي من أجل تحقيق الغايات التالية:

1- العمل على تعميق الوعي بالمعـارف الخاصـة بالطفولـة، قيمتهـا وتطورهـا وموجبات سـلامتها وحمايتهـا مـن كـل مـا يهـددها بـالتعويق أو التعطيـل مادياً أو نفسياً أو عقلياً.

2- إدارة وتطوير أبحاث تربوية تطويرية أصيلة تسهم في تنوير أولياء الأمور والمسؤولين الاجتماعيين والتربويين بالاحتياجات الانمائية للأطفال والتعامل مع هذه الاحتياجات على أنها التزامات جادة يكون الوفاء بها ليس لمصلحة الأطفال وحدهم وإنما هو لهم ولمستقبل أوطانهم ومجتمعاتهم أيضاً.

3- توجيه الاهتمام العام إلى جدوى الاستثمار الاقتصادي في تنمية الطفولة ومردودها السياسي والاقتصادي على التقدم العام للمجتمع وإزدهار الحياة فيه.

4- توفير معارف تحليلية وتشخيصية وتقنية عن احتياجات الطفولة بمنظور عالمي.

5- إجراء البحوث والدراسات الميدانية في مجالات النمو النفسي والاجتماعي واللغوي للأطفال في البلدان العربية.

6- تشخيص الاحتياجات والمشاكل النمائية للأطفال العرب تشخيصاً غير مستعار من ثقافات أخرى وذلك سعياً للوصول إلى حلول لمشاكل الطفولة ملائمة للظروف الاجتماعية التي ينشأ فيها الأطفال العرب.

7- جمع وتنسيق الخبرات والمعلومات الدولية المتعلقة بالطفولة واحتياجاتها وجعلها في متناول الباحثين الكويتيين والعرب المتخصصين في هذا المجال لإعانتهم على إنجاز بحوثهم الجارية أو ابتكار بحوث جديدة.

8- تبني تنفيذ مشروعات تعليمية وتربوية تطبيقية تسهم في تقديم خدمات عملية للأطفال.

9- التعاون مع المؤسسات الكويتية والعربية والدولية العاملة في حقل الطفولة من أجل تنضيج وتعميم **(ثقافة الطفولة)** وصب خبرات البلدان العربية المتنوعة لبناء هذه الثقافة في إطار واحد يمكّن من اقتسام وتبادل هذه الخبرات.

10- إشراك الاعلام **(صحافة ـ تلفزيون ـ راديو ـ مطبوعات)** في عملية نشر الثقافة الجديدة **(ثقافة الطفولة)** بين الشرائح الاجتماعية كافة خدمةً لكل الأطفال في المجتمعات العربية.

-6-

اليوم ... ونحن نلتفت إلى مسيرة وعطاءات ربع القرن الأول من عمر **(الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية)** التي يحملها هذا البيان يراودنا إحساس بالرضا عن النفس لما وفقنا الله إليه من عمل متواصل في سبيل تحقيق الأهداف العشرة التي أخذناها على عاتقنا ولكننا نعتبر ما أنجز محض بداية متطلعة إلى مستقبل أكثر عطاءً في ربع القرن القادم .

ومصدر آخر من مصادر الرضا عن النفس هنا أن ما أنجز في هذه المسيرة الطويلة كان ثمرة جهود كويتية وعربية مشتركة من دونها ما كان لما تحقق أن يتحقق. لقد جاء رفاق المسيرة الطويلة من كافة أرجاء العالم العربي، من المغرب وتونس إلى مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن ومن دول الخليج العربية فشكرا لهم أجمعين.

غير أن كلمة الشكر تظل ناقصة وغير منبئة عن جسامة الجهد المبذول لضمان استمرارية أداء الجمعية لواجباتها ما لم تتسع هالة التقدير والعرفان بالفضل لتشمل عطاءات العمل الصامت ولكنْ الفعال لشركاء الرسالة الآخرين، الزملاء أعضاء الجمعية العمومية للجمعية والأعضاء المؤازرين وأعضاء مجلس الإدارة الذين أعطوا من غير حساب وقتهم وفكرهم وجهدهم ما مكّن الجمعية من الاحتفاظ بزخمها متعالياً دائماً، بهذا تكون كلمات الشكر تنويهاً خجولاً بعطائهم الكبير.

وكما هو الحال دائماً في كل عمل ثقافي كبير، يظل العاملون في الخنادق الخلفية مصدر الحركية وقوة الدفع المباشرة للابداع الثقافي، وهذا ما كان في الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية أيضاً. أعضاء اللجنة الاستشارية للجمعية وأعضاء الأطر الثلاثة المشرفة على (مجلة الطفولة العربية) استشارةً وإدارةً وتحريراً، وفريق الهيئة العالمية لكتب الأطفال ـ فرع

الكويت كانوا أبداً ينابيع للعطاء المتنوّر في كل ما يتعلق بمشاريع الجمعية البحثية وأنشطتها الثقافية المتنوعة فلهم الشكر الخالص على اسهاماتهم المتسامية أبداً.

الدكتور/ حسن الابراهيم

رئيس الجمعية الكويتية

لتقدم الطفولة العربية